مركز التنوير المعرفي

Epistemological Enlightenment Centre

سلسلة رسائل التنوير (١)

نحو تنوير معرفي متجدد

د. محمد عبد الله النقرابي

نحو تنوير معرفي متجدد

د. محمد عبد الله النقرابي

الناشر: مركز التنوير المعرفي
الطبعة الأولى: ٢٠٠٤
رقم الإيداع: ٥٣١
حقوق الطبع محفوظة للناشر

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ صدق الله العظيم

(النور ٣٥)

بين قرن وقرن

ونحن نشهد انصرام قرن من الزمان وبداية قرن جديد لا بد من أن نعتبر بما كان ونستشرف آفاق المستقبل انطلاقاً من معطيات الحاضر وإيجابياته وسلبياته، توتراته وتناقضاته، إشراقاته وإمكاناته.

فقد كان القرن العشرين موّاراً صخّاباً، تسارع فيه إيقاع التغيير والتحوّل بصورة غير مشهودة قبلاً. فمن تفكيك لقوى الاستعمار المباشر إلى دعوات الوطنيات والقوميات والدول القومية إلى حركات الإصلاح المختلفة. ولا ننسى أن القرن العشرين قد شهد حربين عالميتين ومعدلاً سريعاً في التغيرات الاجتماعية نتيجة لحركة التصنيع الواسعة. كانت حركة الفكر الأوروبي كبيرة تشهد ميلاد مجتمع جديد يغرق في مادية أنكرت غالب القيم الروحية. كانت العقلانية المادية، والتي ترجمت نفسها إلى ما يسمى «بحركة الاستنارة» ترى أن عقل الإنسان قادر على الوصول إلى قدر من المعرفة ينير له كل شيء، أو على الأقل معظم الأشياء والظواهر ويعمق من فهمه للواقع ولذاته. فمن نسبية اينشتاين إلى التحليل النفسي لفرويد، إلى برجماتية وليم جيمس وجون ديوى إلى وجودية سارتر وغيرها كانت تتم إعادة نظر مستمرة لكثير من المسلّمات السابقة. لقد برزت الرؤية الاستنارية في هذا الإطار، كرؤية شاملة للكون يطلق عليها عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر اصطلاح (ديانة عالمية) بمعنى أنها تزود الإنسان برؤية شاملة للكون.

كان عالمنا الإسلامي ينفعل بكل ذلك بأشكال مختلفة. كانت الدعوة لإعادة بناء الدول التي كانت مستعمرة تتجاذبها تيارات عدة أهمها تيارين:

I. التيار الداعي إلى إقامة النموذج الغربي. ما بين رأسمالي واشتراكي.

II. التيار الداعي إلى العودة للجذور الحضارية وإحياء الإسلام المتجدد.

ومن الواضح أن كلا التيارين كان يعاني أنماطاً عدة من الإشكالات. فبالرغم من أن التيار الأول كان يحكم حكماً فوقياً بسند الدول الكبرى. إلا أنه كان يعاني إشكالات التوطين لنماذج أيديولوجية وتطبيقية نشأت في بيئة لها خصوصياتها التاريخية والمكانية. وهي إشكالات تتبدى بصورة متكررة في محاولات التوفيق أو الأخذ الاجتزائي أو محاولات التطوير دون أن يكون كل ذلك من خلال قراءة واعية لواقع المجتمعات الخاضعة للتجريب!

أما التيار الثاني فقد كان أكثر قبولاً، إذ كان يستنهض همم الجماهير ويدلف إلى دواخلها بيسر، وإن تناوشته قوى السلطان في أوطانه وقوى الطغيان والهيمنة خارجاً. غير أن هذا التيار لم يخل من إشكالات كذلك. ولعل من أهمها كان تصور إعادة البناء لنموذج مثالي يعلو فوق الواقع لإصلاحه. فكان أن اتكأ كثير من الإصلاحيين على نتاج اجتهاد توقف عند نقطة معينة من تاريخ تطوّر المجتمع الإسلامي. يشخص أحد الكتاب الإسلاميين المعاصرين ذلك بقوله:

الغياب الحضاري أو الأزمة الحضارية التي تعاني منها الأمة المسلمة اليوم ليست بسبب الفقر في القيم التي أكملها الله، وتعهد بحفظها في الكتاب والسنة، الأمر الذي تستلزمه خاصيتا الخلود والخاتمية. في رسالة الإسلام. أو بتعبير آخر: ليست المشكلة أو الأزمة التي يعاني منها العقل المسلم، مشكلة قيم، أو أزمة قيم، وإنما المشكلة كل المشكلة في العجز عن التعامل مع القيم، والإنتاج الفكري الذي يجسّر العلاقة بين هذه القيم بمنطلقاتها وأهدافها، وبين العصر .... فالانحسار الحضاري الذي نعاني منه هو أزمة فكر أولاً وقبل كل شيء، لأن النسق الفكري للحضارة الإسلامية وإسلامية المعارف قد توقف عند حدود العقول السابقة[٢].

لقد تشتت الفكر في عالمنا الإسلامي بين هذا وذاك من التيارات. فمن فكر تابع إلى فكر توفيقي إلى آخر يحاول طرح بدائله التي يراها تحقق خير مجتمعاته وتسهم في حل تعقيدات فكرية وأزمات معرفية بدت واضحة جلية. فبينما آثر البعض النوم على وسائد الماضي وإعادة إنتاج اجتهادات المجتهدين في قرون مضت ولواقع ما عاد ماثلاً، رأى البعض الآخر أن ركوب موجة الحداثة والعصرية أقوم. وبينما رجال ونساء وقفوا على الأعراف.

لقد شهد القرن العشرون فيما شهد الحرب الباردة بين القوتين الكبيرتين. الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والمنافسة بينهما على كسب مناطق جديدة للنفوذ في بلاد العالم الثالث. وكان الإعلام والدعاية والتأثير في الرأي العام، من أهم وسائل هذه الحرب. كما شهد ذات القرن انهيار الاتحاد السوفيتي وبزوغ نجم «فوكوياما» وعملية تمجيد مقاله وكتابه عن «نهاية التاريخ» والذي يطرح الرأسمالية كأحسن النظم، ومقالات صمويل هانتنجتون عن «صراع الحضارات» والتي احتل فيها الصراع بين الغرب والإسلام مكاناً خاصاً هذه التحولات عمقت من تشتت الفكر وضخمت من إحساس الأزمة.

لا ريب أن سيادة ما هو «اقتصادي» على غيره كانت وما زالت سمة أساس في التصوّر

الغربي للكون. فقد بدأت الرؤية الاقتصادية الحديثة في الغرب بمرحلة تقشفية كان الهدف النهائي للإنسان فيها هو الإنتاج والزيادة المطردة فيه، وما يحرك المنتج هو المنفعة. ثم أصبح الهدف النهائي من الوجود هو الاستهلاك وما يحرك المستهلك هو اللذة. من ثم، وبعد تحكم الرأسمالية في العملية الإنتاجية، انتقل النظام من المنفعة إلى اللذة وأصبح الاستهلاك هو هدف المجتمع. كما أصبح الاستهلاك هو المجال الرئيسي الذي يتم فيه اغتراب الإنسان، حيث تتحدد وتنتج احتياجات الناس، وتوجه الرغبات نحو ما تم تحديده وإنتاجه من قبل الاحتكارات الرأسمالية. قوة الاقتصاد تعني ضرورات السيطرة وفتح منافذ السوق والمادة الخام. وهو مضمار تلتقي عنده السياسة والأخلاق والمعايير. وفي إطار حركة «التسليع» الواسعة، لم ينج البحث العلمي بل والفكر من ذلك. فقد أصبح إنتاج المعرفة صناعة تتأثر بظرفيات تمويلها ومصالح من يقومون على رعايتها.

لقد برز تيار العولمة الاقتصادية خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين من خلال الاتساع المتنامي للتدفقات المالية عبر الحدود الجغرافية. فلم يعد بالضرورة أن تتم كل مراحل الإنتاج الصناعي في دولة واحدة بل يمكن أن يتم إنتاج السلعة من خلال مراحل وسيطة في عدة دول للاستفادة من الميزات المتوفرة فيها لتقليل تكلفة الإنتاج. من جهة أخرى نجد أن المجموع القيمي المتمثل في الثقافة الغربية بكافة تمثلاتها أصبح يشكّل الإطار الثقافي للعولمة. وهو ما يضع تحدياً للثقافات المختلفة في العالم لتعيد النظر في أمر تأكيد ذاتيتها وهويتها.[٢] إلا أننا نجد أن الحركة العامة الرامية إلى إزالة الحواجز بين المجتمعات بالعولمة والكوكبة قد صحبها احتدام وتأجج للهويات الخاصة سواء كانت عقائدية أو قومية أو أثنية. فاتسعت بؤر التوتر وتزايدت مساحات النزاع في العالم وبالذات العالم الثالث.

لقد طُويت صحائف القرن العشرين والعالم لم يزل يبحث عن أفق جديد يجد فيه بشائر الخلاص. فالغرب أنجز مادياً وتكنولوجياً لدرجة ظن فيها أنه قد وجد الحلول المطلوبة لمستغلقات الأمور وإن لم يستشعر الطمأنينة التي توطّن لهذا الظن. أما عالمنا الإسلامي فقد كان لا زال يبحث عن هوية راحت من بين يديه فطفق يبحث عنها في كل مكان إلا عنده.

وجاء القرن الحادي والعشرين لميلاد المسيح عليه السلام والقطبين الكبيرين في العالم قد صارا قطباً واحداً يدعو العالم كله إلى جنته ويصليه ناراً إن لم يجب الدعوة. فكم من مجيب لم يمسك إلا برقاً خُلّباً، وقليل لم يجب ولم ينافح عن نفسه. القطب الأمريكي

الأوروبي يريد أن يعيد رسم خارطة العالم، بألوانه التي يريد ووفق نظام اقتصادي/ اجتماعي / ثقافي موحد يخدم مصالحه أولاً. تلك المصالح التي بنيت على إعلاء الكسب المادي وتطفيف موازين العدل لمنفعته. كل آلة الإعلام والمعلومات والحرب والفكر والثقافة وجهت لهذه الغاية - التي أصبحت كلها ذرائع لبلوغها.

إن الصورة التي تشكّلت أطرافها في العالم الآن صورة لا تشبه طبيعة الأشياء ولا منطق السنن ولعلها تؤشر إلى فوضى تقود إلى تحولات كبرى، نعايش بعضاً من إرهاصاتها ونتلمس فهماً لجوانبها.

المراجعات والمرجعيات:

لقد كان التنوير الأوروبي دعوة إلى إعلاء العقل وعود إلى دعاوى المادية والمحسوس وبناء للعلم بمعزل عن الدين.

لقد نجحت الفلسفة العقلانية المادية في أن تقضي إلى حد كبير على الإحساس الديني وغير المادي للمعرفة والأخلاق بأن جعلت المادة وقوانينها هي المرجعية الوحيدة والركيزة الأساسية لأي رؤية للواقع - ولكنها لم تفعل ذلك إلا من خلال تطوير رؤية ميتافيزيقية شاملة بديلة بافتراض ثبات مطلقاتها مثل العقل والطبيعة البشرية والقوانين العلمية رغماً عن أن هذه المطلقات موجودة داخل عالم المادة وتخضع لقوانين الحركة المادية.

لقد تحققت نجاحات كبيرة في مجال العلوم الطبيعية وتطبيقاتها واستطاع الإنسان - وفق رؤية معيّنة للعلاقة مع الطبيعة والكون - أن يقفز قفزات واسعة في المجال التكنولوجي ويضاعف كسبه من الرفاهية المادية بوتائر متسارعة. لقد تمددت الآلة حيث كان الجهد البشري في كل مناحي الحياة وأصبحت تقلص من المجال الطبيعي والاجتماعي والنفسي للإنسان وتخضعه لمقتضى متطلباتها الثقافية والمادية واللوجستية معاً فانزوى في علاقاته وتراجع في انطلاقته الوجدانية إلى فردانية مقلقة ووجدانية متناقصة. لقد أدى الشطط في اتجاه العقلانية المادية إلى إحساس متباين ونزعات متناقضة في الفكر والأدب والفنون، فقد برزت نزعتان تناولتا موضوع مساوىء الحضارة عموماً. أحدهما هي النزعة العقلية، التي يئست من الاحتمال التاريخي لتحقق العقلانية وتعميمها داخل المجتمع وبين

المجتمعات. والنزعة الثانية هي نزعة ماضوية ضد العقل (لا عقلانية) تشجب العقل والتقدم لأنهما دمرا التكوين الطبيعي. وبينما كانت النزعة الأخيرة جاذبة في الآداب والفنون، إلا أنها شكّلت اتجاهاً رجعياً في السياسة.

لقد كان السقف الذي وضعه الإنسان الغربي لحدود معرفته وفكره - سقف المحسوس والمادي - سقف حاد لقدراته ومتناه وحصري.

لقد كان للتقدم الكبير الذي حققته العلوم الطبيعية أثره على التصور العام للعلم، فقد أصبحت صورة العلم هي الصورة الموجودة في مجموعة العلوم التي قطعت هذا الشوط الكبير في المجال النظري والتطبيقي والمنهجي. من ثم بدأ العلم - بهذا المعنى - يعطي المشتغلين فيه قدراً من اليقين يعبّر عنه لندبرج بقوله: أن محتوى العلم في شكله الناضج ليس إلا مجموعة من القضايا التي تأكدت صحتها، وهي مرتبطة بحيث يبدو النسق في ضوء قواعد معيّنة (منطقية) متسقاً مع ذاته ومتفقاً مع الملاحظة التجريبية. وكلما اتسع نطاق تطبيق تلك القضايا، أي كلما اتسعت مجموعة الظواهر التي تغطيها تلك القضايا، كلما زاد تأكدنا من المعرفة الخاصة بالمجال الذي تغطيه[٦].

لقد قدّم العلم نفسه بهذا المعنى الشمولي في شكل يقينيات، تقوم على التجربة - إلا أنه في ذات الوقت اكتسب قدراً من القداسة وقدراً آخر من إقصاء ما لا يقع في دائرة اهتمامه أو تجريبه باعتباره غير علمي. إن ما يتفق عليه الكثيرون أن العلم يشكّل حركة اجتماعية، وأن العالم مندمج في المجتمع ملتزم بالتاريخ. فليس بالإمكان إقامة حاجز أخلاقي بين العلم النظري المحض والعلم التطبيقي العملي. فليس ثمة تفكير علمي خالص، بل هناك حركة علمية اجتماعية تحمل في طياتها نتائج معيّنة ودلالات خاصة وآثاراً محددة.[٧] فالمكوّن المعياري للبناء النظري العلمي أمر من الصعب أن نتجاوزه.

لقد كانت العلوم الاجتماعية أقل حظاً من العلوم الطبيعية في إحداث القفزات المعرفية، إلا أنها لم تخل من المساجلات الآنفة. فقد حاول رواد الوضعية أن يلحقوا العلوم الاجتماعية بالعلوم الطبيعية منهجاً ورؤية (لتوحيد) أساس المعرفة الوضعي، ولانتظار نجاحات مماثلة في العلوم الاجتماعية لتلك التي بدت في العلوم الطبيعية. فما كان ممكناً تطبيقه بالنسبة للطبيعة قد تم افتراض إمكانية تطبيقه بالنسبة للإنسانية، أي بالنسبة لكل من الفرد والمجتمع، فإن كليهما يمثل الطبيعة ويجب إخضاعهما لنفس الأساليب إن

لم يكن لنفس القوانين، بغرض فهمهما. وإلى جانب تلك الثقة. كان يوجد الأمل في توجيه الحقيقة الإنسانية الاجتماعية إلى الغايات التي تم تصورها سلفاً. ولكن المجتمع لم يكن يتحرك بنفس السرعة التي كان يتحرك بها التطوّر العلمي، وإذا أراد المجتمع أن يحافظ على ذلك القدر من التفاؤل الذي بثّه العلم، فإن عليه الإسراع في إحراز التغيير. وقد كان السؤال عن كيفية تحقيق مثل ذلك التغيير حافزاً للعقل الغربي على محاولة فهم السلوك من أجل توجيهه الوجهة المرغوبة، وسرعان ما توصّل التفكير إلى أن الأسلوب التحليلي الخاص بالعلوم الطبيعية يستطيع أن يحقق مثل ذلك الفهم ويفتح أبواب المجتمع لإحلال التنظيم والتخطيط والتوجيه.

لقد أصبح هذا التوجّه طاغياً لدرجة كبيرة، بحيث أصبح من الصعوبة أن نتلمس الحاجز الشفيف بين العلم والأيديولوجيا.

وكما يعبّر ريمون رويه : «فإن جاه العلم قد ازداد زيادة مذهلة. ففي الماضي كان المتأدبون» يقاومون قليلاً، وكان في وسعهم الاعتزاز بأنفسهم في بعض الأحيان. واليوم نجد أن إرهاب «العلمية» لا يكاد يقاوم. إنه إرهاب يسيطر على السياسة وعلى الفن وعلى الإبداع بوجه عام (أو الابتكارية). وليس ثمة مجال للهزء من «معامل الإبداع عندما يسيطر عليها شخصيات مرموقة، وهي تتصرّف بآلات باهظة التكاليف».

هذا البناء الفكري بدأ الاعوجاج فيه يظهر هنا وهناك. كذلك فإن ذلك النسق المغلق الذي انحشرت فيه المعرفة لم يكن يسمح بإصلاح الإعوجاجات البادية بإعوجاجات أخرى. كنتيجة متوقعة لمحدودية السقف وحصره لما دونه وإفرازه لقوى حركته الذاتية التي تعيد إنتاج ذات النماذج بأشكال مختلفة. لقد أصبح الفكر الغربي واثقاً من قدرته على السيطرة على العالم مادته وإنسانه، للدرجة التي سعى فيها لإقصاء أي نماذج أخرى للاجتهاد، توسع من دائرة المعرفة أو تنوع من معطياتها. لقد أصبح العلم ديناً والإنجاز هدفاً بحد ذاته، فتنادت أطراف الأزمة المعرفية لتفرز عقداً متعددة واختناقات عدة.

وفي ذات الوقت أصبحت هذه الأزمة المعرفية جزءاً من مكونات الأزمة في مجتمعاتنا، كناتج لخضوع هذه المجتمعات لجملة من المؤثرات المباشرة وغير المباشرة نتيجة علاقتها بالغرب استعماراً أو تبعية أو تلقي مباشر في ظل غياب الطروحات المحلية.

هذه القضايا ظلّت تشغل بال الكثير من أهل الفكر والرأي في المجتمعات الإسلامية

بصفة خاصة، وتم التعبير عنها من خلال أطروحات الكثير من الجماعات والاتجاهات الرافضة للاستلاب والساعية لتحقيق الذات بصورة مختلفة.

لكن رغماً عن ذلك استمر الطرح يخاطب مظاهر الأزمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية دون أن يكون هناك كسب واضح في الفكر والرؤية، بل ظل هذا الكسب يراوح بين محطات السلف أو محاولات التوفيق أو الدعوة إلى بدائل معرفية مازالت قضايا عامة أو دعوة وجدانية.

لقد بدا أن تحريك المضمار الفكري ضرورة لازمة، إذ لا يمكن البناء أو التغيير إلا من خلال فكر هاد يؤسس لنظام ثقافي وحضاري يقدم نفسه لمجتمعه ولغيره.

إن العلم يعد نشاطاً إنسانياً، وهي حقيقة لا بد من أن تذكر إذ الانطباع السائد هو أن العلم «موضوعي» لأنه مستقل عن ذاتية الإنسان. العلم هو تنظيم المعرفة الإنسانية وليس تنظيم العالم. إلا أن هذه المعرفة تنطلق من «رؤية» تتعامل من خلالها مع معطيات الواقع استقصاءاً وتحليلاً وتفسيراً. وكما هو معلوم فإن العلاقة الجدلية مع الواقع تعني أن النظرية تعنى بفهم الواقع والذي يرفدها هو الآخر بمعطياته. ذات العلاقة تعنى فيما تعنى أن الإنتاج العلمي عمل مستمر ومتجدد . باستمرار تجدد الواقع وتغيّر معطياته. فكما أن الكون يتسع باستمرار، فكذلك العلم. إن إدراك هذه المعطيات مهم لتجاوز الوقوع في أسر المحطات الفكرية (النهائية) أو النماذج الفكرية الحصرية. ولعله من الواضح أن قضية عدم تحريك الفكر المجتهد في العالم الإسلامي والمنفتح على آفاق الوحي، قضية قد تم تداولها بصورة مكثّفة وبأشكال مختلفة من التعبير إفصاحاً أو إجمالاً. لكن كل ذلك لم يتجاوز الإشارة أو التنبيه إلى الممارسة الاجتهادية الفعلية ولعل ذلك بعض من آثار التباعد بين النظر والواقع. ومن جهة أخرى فإن الفكر المعاصر والذي يطرح نموذجاً عالمياً واحداً: اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً ... الخ، ظل يخنق التنوع ويغلق نوافذ الدفع الفكري والثقافي غير المنضوية تحت رايته.

إن التعامل مع هذا الواقع الفكري والإسهام في تشكيله بصورة تتجاوز الاختناق وتفتح آفاقاً أرحب للفكر الإنساني، يعني استنهاض الفكر المستند إلى الوحي في الحوار مع ذاته ومع الآخر. لقد أخذ العالم الإسلامي عهوداً متطاولة يتكىء بكسل على اجتهادات المجتهدين السابقين . فالكسب معرفة موروثة لا تعينه دائماً في التعاطي مع واقعه المتغيّر مما جعل الواقع يسير كيفما اتفق والعلم يتقوقع بتقعيد وتعقيد الوسائل. ثم جاء وقت آخر تطاول هو الآخر وإن كان أقل من سابقه تواترت فيه الدعوة إلى تجديد الفكر والاجتهاد

لمعايشة الواقع المضطرب بهدى الوحي. وبلغ هذا التواتر ذروته مع طغيان الطروحات الفكرية المباينة بل والمناقضة لمقتضى الدين، فأضاف أغلالاً إلى أغلال الأسر الفكري. إن المدارس الفكرية المختلفة المطروحة في عالمنا المعاصر لا تكاد تجد نقاط اتفاق بينها تعينها على تجاوز الاختناق والتناقض والتشاكس. هناك دور مطلوب الآن لطرح يقوم على مرجعية الوحي الكريم، والتي نعتقد أنها متحررة عن ظلال هذه المدارس المتخاصمة، لأنها تشكّل (موضوعية) لم يتم تلمّس آفاقها من خلال اجتهاد متجدد. من ثم فلا بد من الانتقال من دائرة الدعوة إلى الاجتهاد إلى (ممارسة) الاجتهاد. وهو في تقديرنا (تنوير) مطلوب، في وقت هو أحوج ما يكون إليه.

ولا نخال ذلك أمراً هيّناً أو ميسوراً، إذ يحتاج الأمر إلى طاقة فكرية متعاظمة يسهم فيها مجتهدون في جوانب شتى اقتصادية واجتماعية وسياسية وأدبية وخلافه في كل أطراف العالم الإسلامي. وهو اجتهاد يؤطر لإنتاج العلم في هذه المجالات وفق (رؤية) أخرى تثري الفكر الإنساني. والنظر في هذه الحالة لا يقوم منقطعاً عن المشكلات العملية التي تربط الفكر بواقع متجدد، بل يتناصران في عمل علمي يعنى بمقتضى الأصل المعرفي كما يعنى بمقتضى مخاطبة الواقع في ذات الوقت. يتضافر بهذا الفهم العمل العلمي والعمل التقويمي لمؤسسات المجتمع من خلال الشراكة بين مراكز المجتهدين ومعاهدهم ومؤسسات المجتمع وأجهزته. وهي شراكة لا بد منها إن كان يراد للعلم أن يكون هادياً للواقع وليس مستعلياً عليه. من ثم لا بد من توسيع دوائر الفكر والمعرفة. المتصلة بالوحي الكريم. نشراً أو تشبيكاً مع العاملين الآخرين في مجال هذه المعرفة.

والأمر هنا لا ينقطع عن جهد فكري سابق في ذات الإطار، ولا فكر إنساني متصل. لقد كان هناك جهد فكري بدأ منذ بدايات القرن الماضي في العالم الإسلامي وامتد عمله. بأشكال مختلفة. بحثاً عن الذات الحضارية في مقابلة الآخر وتأسيساً على مقتضى التديّن وارتباطاً بآفاق الوحي الرحبة. وهو جهد لا بد من استصحابه حواراً ونقاشاً وتوسيعاً.

كما أن معطيات الفكر الإنساني تشكّل جهداً جماعياً، لا يتم تجاوز الكثير منه بل يشكّل مضماراً لرفد فكري هام.

ومن الواضح أن أولوية البحث في العلوم الاجتماعية تأتي من أنها تشكّل العلوم الخاصة بالأمة. كما يذهب د. الفاروقي. فهي لا تقل مرتبة عن العلوم الطبيعية في الخطة الخاصة

بالمعرفة الإنسانية. كلاهما يهدف إلى اكتشاف وفهم النمط الإلهي: أحدهما يعمل على استكشافه في نطاق الأشياء المادية، والآخر في نطاق الشؤون البشرية. ولعل الأخير (أي الاجتماعي) هو الذي يطرح جل الإشكالات في عالمنا المعاصر. إن العالم الاجتماعي المسلم المجتهد مهيأ أكثر من غيره لانتقاد الواقع في ضوء النمط الإلهي الذي يسعى لفهمه بمرجعيته. من ثم فلا بد من جهد قاصد وعمل مضن، هو جزء من مسئولية العلماء ومقتضيات الأمانة التي يحملوها. ولكي يتحقق ذلك فلا بد من أن تنشأ المراكز البحثية التي تتوفر على هذا العمل الاجتهادي يتداعى إليها الباحثون المجتهدون، بأفق واسع وسعي قاصد لا تحدّه توترات الدفع السياسي المشكل بمشارب مختلفة. وهو عمل لا بد من أن يكون عملاً تضامنياً تشاركياً جماعياً. هذه المراكز - لكي تنتج علماً - لا بد من أن ترتبط ببعضها البعض لتبادل الأفكار وتلاقح المفاهيم. كما لا بد من أن يكون هناك تبادل علمي جاد بين الباحثين والعاملين في مجال المعرفة. ويمكن أن تتوزع الأدوار بين المؤسسات في مجال المعرفة المرتبطة بالوحي لتتكامل المعرفة من خلال هذا الرفد الفكري المتعدد. ولكي لا يكون الأمر دعوة أخرى تضاف إلى دعوات سابقات، يتعيّن أن تبدأ المبادرات في هذا الإطار عملاً لا قولاً.

يمكن القول في نهاية هذه الورقة أن الأطروحة التي عرضت لها قد لا تجد قبولاً كاملاً لا بين «التقليديين» ولا بين «الحداثيين» في الفكر الإسلامي وإن كان كل من الطرفين قد يقبل بعضاً من عناصرها. إلا أن ذلك يدعم ضرورة البحث عن «خارطة طريق» تجتمع فيها هذه الأطراف وغيرها وهنا يمكن أن تكون هناك ممارسة للاجتهاد.

فعن طريق توسيع آفاق التعاون والتناصر، يمكن أن يتصل العمل المهتدي بأنوار الوحي نظراً في متاح الفكر البشري بموضوعية الوحي وتطبيقاً على قضايا الهم الاجتماعي الواسعة والمتسعة.

قال تعالى: (*الله نورُ السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم*)

(سورة النور: ٣٥).

والله نسأل أن نكون من المهتدين.

الإحالات المرجعية

١) المسيري، د. عبد الوهاب، د. فتحي التركي «الحداثة وما بعد الحداثة».
حوارات لقرن جديد دار الفكر. دمشق ط١ يوليو ٢ - ٣م. ص ١٧.

٢) العلواني، طه جابر «إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات»
سلسلة إسلامية المعرفة (١٠) الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي الرياض ط٢ ١٩٩٤م ، ص ٣ . ٤.

٣) النقرابي، محمد عبد الله «التعليم والعولمة» ورقة غير منشورة سمنار التعليم ومتغيرات القرن الحادي والعشرين. الاتحاد العام للطلاب السودانيين (د. ت) ص ٢ . ٣.

٤) بايار ، جان فرانسوا ترجمة حليم طوسون «أوهام الهوية» دار العالم الثالث، القاهرة ط١ ١٩٩٨، ص٨ .

٥) العظمة، عزيز «الحضارة والثقافة والبربرية الجديدة».الثقافة العالمية العدد ١١٢ يوليو . أغسطس ٢٠٠٢. ص ١١.

٦) Lundberg, G.A. » The postulates of science and their Implications for sociology », In M.Natanson (ed) Philosophy of social Sciences:a reader », New York, Random House, 1963 , P. 34.

٧) إبراهيم، د. زكريا «قيمة العلم بين النظرية والتطبيق»، الفكر المعاصر، عدد ١٠، فبراير ١٩٦٦ . ص ٢٨.

٨) الفاروقي، أ.د. إسماعيل «صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية». رسائل إسلامية المعرفة (٥) المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض ١٩٨٩ ط١ ، ص ١٢ . ١٣ .

٩) رؤيه، ريمون . ترجمة د. عادل العوا «الممارسة الأيديولوجية» سلسلة زدني علماً، دار عويدات، بيروت . باريس ١٩٨٩ ط٢ ، ص ٣٠.

١٠) الفاروقي، أ.د. إسماعيل. نفس المرجع السابق ص ٢٧

أهداف المركز ووسائله

١. إنتاج العلم القائم على مرجعية الوحي في مجالات العلوم الاجتماعية.
٢. الربط بين النظر والواقع من خلال تحديد مشكلات قائمة واستهدافها بالبحث التطبيقي ومن ثم رفد التنظير.
٣. اقتراح السياسات من خلال نشاط علمي مركز.
٤. التواصل مع المراكز والمؤسسات ذات الاهتمام المماثل بغرض الاستنهاض الفكري وتبادل نتائج البحوث.
٥. النشر العلمي لناتج عمل المركز عبر كافة الوسائط.